روضة الحكايات!!
(١٦)

مِنْ (حمص) إلى (القيروان)!!

الدكتور
محمد عمر الحاجي

obeikandl.com

obeikandl.com

الطبعة الأولى

جميع الحقوق محفوظة

يمنع طبع أو إخراج هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من أشكال الطباعة أو النسخ أو التصوير أو الترجمة أو التسجيل المرئي والمسموع أو الاختزان بالحاسبات الالكترونية وغيرها من الحقوق إلا بإذن مكتوب من دار المكتبي بدمشق .

دار المكتبي
للطباعة والنشر والتوزيع
www.almaktabi.com

سورية ـ دمشق ـ حلبوني ـ جادة ابن سينا
ص.ب ٣١٤٢٦ ـ هاتف : ٢٢٤٨٤٣٣ ـ فاكس : ٢٢٤٨٤٣٢
e-mail: almaktabi@mail.sy

في ظلالِ الرسول الأسوة

أخذتْ (ناديا) كتاباً من مكتبةِ والدِها ، وراحتْ تقرأُ فيه... ، فأُعْجِبَتْ بموضوعٍ يتحدّث عن الأخلاقِ ، فقلبتِ الصفحاتِ وراحَتْ تقرأ ما كُتب تحت عنوان (وَمَضاتٌ من خُلُقِ التواضع) .

ومما قرأتْه... ثم سجّلَتْ منه ما أَعْجَبَهَا أكثرَ من غيره ، وذلك بهدَفِ نَقْلِهِ إلىٰ صديقاتِها وهو ما يلي :

كما هو معلوم ، فالقرآنُ الكريم طالَبَ المسلمين أن يَتّخِذوا من سيرةِ سيّد الأنام عليه الصلاةُ والسلام أسوةً في كلِّ الأمور ، مصداق ذلك قوله تعالىٰ :

﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٢١] .

وإذا نظرْنا إلىٰ جانبٍ ـ تَواضُعِه ـ مثلاً ، صلواتُ الله عليه ، فإننا نرىٰ أمراً عجباً! فمن ذلك :

ما أخرجَه الإمامُ أحمدُ بالسَّنَدِ المتَّصِلِ إلىٰ أنسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن رجلاً قال : يا محمد! يا سيّدنا وابنَ سيّدِنا ، وخيرَنا وابن خيرِنا...

فقال رسولُ الله ﷺ : « يا أيّها النّاسُ عليكم بتقواكم ولا يَسْتَهْوِيَنّكُمُ الشيطانُ ، أنا محمدُ بن عبد الله ، عبد الله ورسوله ، والله ما أحبُّ أن تَرْفَعوني فوقَ مَنزِلَتي التي أنزلَني اللهُ عز وجل » .

ولذلكَ تُحدِّثُنا السيرة الطاهرةُ عن أحواله صلواتُ الله عليه في بيتِه :

فقد أَخْرَجَ ابنُ حَنْبَل عن عائشةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا

قالت : سُئلتُ ما كان رسول الله ﷺ يعمل في بيته ؟

قالتْ : كان بَشَراً من البشر ، يُفلي ثوبَه ـ أي يقوم بتنظيفِه... ـ ويَحْلُب شاتَه ، ويخدمُ نفْسَه .

أما مع الخدمِ والعبيدِ ، فكان صلواتُ الله عليه لا يتكَبَّر عليهم ، ولا يُشْعِرُهم أنه أعلىٰ مَقاماً منهم ، من ذلك ما أخرجه البخاري عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن رجلاً أسودَ ، كان يقُمُّ ـ يُنظّفُ ويَكْنُسُ ـ المسجدَ ، فمات .

فسأل النبيُّ ﷺ عنه ، فقالوا : مات ، قال : « أفلا كنتُم آذَنْتُموني به ؟ دُلّوني علىٰ قبرِه » فأتىٰ قبرَه فصلّىٰ عليه .

ومع المَجانين وأصحابِ العاهاتِ ، كان صلواتُ الله عليه قمّةً في التواضُعِ :

من ذلك ما أخرجَ الإمامُ مسلم عن أنسٍ رَضِيَ اللهُ

عَنْـهُ أنّ امـرأةً كـان فـي عقلهـا شـيءٌ ، فقـالـتْ : يا رسولَ الله إنّ لي إليك حاجةً .

فقال : « يا أمّ فلان! انظري أيّ السككِ شئتِ ، حتىٰ أقضيَ لك حاجتَكِ » فخلا معها في بعض الطرُقِ ، حتىٰ فَرَغَتْ من حاجتِها .

.. ومـع الأطفـال كـان صلـوات الله عليـه متواضعاً ، يلعبُ معهم.. ويمازحُهم.. ويضاحِكُهُم . وأخرج الإمامُ أحمد عن أنس قال : إنْ كانتِ الوليدةُ مـن ولائِـد أهـلِ المـدينـة لتجـيءُ فتـأخـذُ بيـدِ رسولِ الله ﷺ ، فلا يَنْزِعُ يدَه من يدِها حتىٰ تذهبَ به حيث شاءتْ .

... ومع أصحابِه كان صلواتُ اللهِ عليه قمّةً في التـواضُـعِ ، فكـان يعـودُ مَـريضَهـم ، ويَشْهَـدُ جنائزَهُمْ ، ويُشارِكُهُم في الأفراح والأتراح :

من ذلك ما أخرجه البخاريّ عن جابرٍ بن

عبد الله رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، قال : مرضتُ مرضاً ، فأتاني النبيُّ ﷺ يعودني وأبو بكر ، وهما ماشيان ، فوجداني أُغْمِيَ عليَّ ، فتوضَّأَ النبيُّ ﷺ ، ثم صبَّ وَضوءَهُ عليَّ فأفقتُ .

... وكان صلواتُ الله عليه إذا نُقل إليه أنّ أحداً من أصحابِه قد أذْنَبَ ، لا يُعَنِّفه... ولا يَضْرِبُه... ولا يُوَبِّخه ، بل كان يَنْصَحُه.. ويُرشدُه و... يتلطّف معه :

أخرج الحاكم عن جرير بن عبد الله قال : أُتيَ النبيُّ ﷺ ، برجلٍ تُرعدُ فرائصُهُ ، قال : فقال له : « هَوِّن عليك ، فإنما أنا ابنُ امرأةٍ من قريش ، كانت تأكُلُ القَدِيدَ في هذه البَطْحاء » .

ثم تلا جرير بن عبد الله البجليّ : ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِجَبَّارٖۚ فَذَكِّرۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: ٤٥] .

وكان صلوات الله عليه كثيراً ما يردِّدُ : « اللهمَّ

أحيني مسكيناً ، وأَمِتْني مِسْكيناً ، واحْشُرني في زُمرةِ المَساكينِ يومَ القيامة » .

وذاتَ يومٍ نَصَحَ زوجَه عائشةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا ، فقال : « يا عائشةُ! لا تردّي المسكين ولو بِشِقّ تمرة ، يا عائشةُ! أحبّي المساكينَ وقَرِّبيهِمْ فإنّ الله يقرّبُكِ يومَ القيامة » .

لَكنّ من أَعْجَبِ ما قرأتْ (ناديا) في تواضُعِ رسولِ الله ﷺ ما أخرجه الطبراني عن أبي أمامة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، قال :

كانت امرأةٌ تُرافث الرجالَ ، وكانت بذيئةً ، فمرّتْ بالنبيِّ ﷺ وهو يأكل ثريداً ـ نوع من أنواع الحلويات ـ علىٰ طربالٍ ـ علىٰ مكان مرتفعٍ ـ ، فقالت : انظروا إليه يجلسُ كما يجلس العبدُ ، ويأكلُ كما يأكلُ العبدُ!

فقال النبيُّ ﷺ : « وأيّ عبدٍ أعبدُ منّي ؟ » .

قالت : ويأكلُ ولا يُطْعِمُني!

قال : « فكُلي » .

قالتْ : ناوِلْني بيدك ، فناولَها ، فقالتْ : أَطْعِمْني مما في فيك ـ فمِك ـ ، فأعطاها ، فأكلتْ ، فغلبَها الحياءُ فلم تُرافِثْ أحداً حتىٰ ماتتْ .

* * *

obeikandl.com

فماذا عن تواضُعِ العلماء ؟!

ثم قرأت (ناديا) فَصلاً كاملاً يتحدّثُ عن تَواضُعِ العلماءِ... ، وكيف لا يكون منهم ذلك ، وهم وَرَثةُ الأنبياء ؟

من ذلك مثلاً : أنّ القاضي سَحنون كان قد بَلَغَ من المَنْزِلَةِ في العِلم الشيءَ الكثير . وقد أصبح له مكانٌ مَرْموقٌ في القضاءِ ونحو ذلك ، ومع ذلك فقد كانَ رجلاً متواضِعاً ، يجلسُ بين تلاميذِه ، ويقدّم لهم النصائحَ ، ويدلّهم علىٰ طريقِ الهدايةِ ، بل كان يُنْفِقُ عليهم من مالهِ الخاصِّ ، وكان كثيراً ما يقدّم الاعتذارَ ، وذلك إذا شعرَ أنّ في كلامهِ إساءةً لأحدِ هم ، مثالُ ذلك :

جاءتْه بضاعةٌ ذات مرةٍ ، فرأىٰ أحدَ طلابه

جالساً في الطريق ، فنهاه ، وحينَ حاوَلَ القيامَ لم يَسْتَطِعْ ، فَتَخطّاه (القاضي سحنون)!

وفي اليوم التالي ، خَرَجَ الشيخُ إلىٰ الدرسِ ، ثم بدأه بقوله :

بسم الله الرحمن الرِحيم ، ثم وَضَعَ الكتابَ ، وتبسَّم قائلاً : كَبِرْنا ، وساءتْ أخلاقُنا ، ويعلم اللهُ أني ماأَصيحُ عليكم إلا لأؤدِّبَكُم وما أريدُ بكم ـ يعلمُ اللهُ ـ مكروهاً ، إلا أننا ابتُلينا بالقضاءِ عند الكِبَرِ ، ونحنُ أحوجُ ما كنّا إلىٰ أنفِسنا ، وما أُريدُ إلا لِتَرْعَوُوا وتَتَفَقَّهوا وتَعْمَلوا بما سمعْتُم...!!

ومعَ كلِّ تلك المكانةِ الرفيعةِ للقاضي (سحنون) ، فقد كان متواضِعاً جداً ، من ذلك أنه كان يتحفّظُ في الفتوىٰ ، ويحاولُ أن يُفتيَ فيها أحدٌ قبله ، وإذا سُئلَ في مسألةٍ أمامَ الناسِ ، كان يُجيب السائل : لماذا تأتونَ إليّ ، اذهبوا فاسألوا

العلماءَ!! لذلك صرّح مرة فقال : إني لأسألُ عن المَسألةِ ، فأعرفُها ، وأعرفُ في أيِّ كتاب هي فيه ، وفي أي ورقةٍ وأيّ صفحة ، وعلىٰ كمْ هي من سَطْرٍ ، فما يَمنعُني من الجوابِ فيها إلا كراهيةُ الجُرأةِ بعدي علىٰ الفتوىٰ!!

... وقد جاءه مرةً سائلٌ من بلدةِ الخليل في فلسطين ، يريدُ أن يسألَهُ عن مسألةٍ ، فلم يُجِبْ ثلاثة أيام ، والسائلُ يَستَعْجلُ الجوابَ ، ويُلِحُّ عليه فيه .

فما كان من (سحنون) إلا أنْ قال : يا بن أخي! أبْذُلُ لكَ لحمي ودمي للنارِ ، ما أكثرَ ما لا أعرفُ ، إنْ صبرتَ رجوتُ أن تَنقلبَ بحاجتِكَ ، وإن أردتَ أن تَمْضي إلىٰ غيري ، فَتُجابَ في ساعة واحدة!

فلما رأىٰ السائلُ تواضُعَ (سحنون).. رَفَضَ تَرْكَه ، وبقي ينتظرُ حتىٰ أتاه الجواب!!

* * *

قاضٍ... . ولكنْ دُونَ أَجْرٍ!!

... ودَخَلَ (سمير) الصالونَ ، فرأىٰ أختَه (ناديا) مستغرقةً في مطالعةِ هذا الكتابِ ، فلما رأتْهُ قالت : ما رأيُكَ في أن تَجْمَعَ بعضَ المعلومات عن (القاضي سحنون) ، و تَضُمّها إلىٰ ما كتبتُ عنه ، وتُلقي ذلك محاضرةً في المَعْهَدِ ؟

وبعد أيامٍ كان ما أرادَتْ ، وكانت بحقٍّ محاضرةً قيّمة ، اطّلع الناسُ من خلالها علىٰ بعضِ الصفحاتِ الخالدة من سيرةِ العلماءِ الأفذاذ...

* * *

obeikandl.com

فمن هو ذلكُم القاضي ؟!

هو (عبد السلام التنوخي) ، يعودُ أصلهُ إلىٰ (حمص) ، رَحَلَ والدُه إلىٰ (القيروان) ، وهناك وُلِدَ القاضي ، وكان ذلك في سنة (١٦٠هـ) ، ولُقِّب بسحنون .

وانكبَّ منذ الصِّغَرِ علىٰ تحصيلِ العلومِ ، ثم رحل إلىٰ مِصْر فالتقىٰ بأصحابِ الإمام مالكٍ وأَخَذَ عنهم الكثيرَ ، ثم رَحَلَ إلىٰ بلادِ الحجازِ ، فالتقىٰ بكبارِ العُلماءِ هناك ، ثم عادَ إلىٰ (القَيروان) وراحَ يَبُثّ العلمَ والفقه و... ، حتىٰ أصبحَ من أَبرَزِ العلماءِ مكانةً...

كلّ ذلك أدّىٰ إلىٰ سَجْنِه مراراً وتكراراً ، وعُذِّب وأُهينَ ، لكنه ثَبَتَ علىٰ الحقِّ .

ولم يتراجعْ قِيْدَ أُنْمُلَةٍ ، وذلك لِمَا كان يحملُه في قلبِه من أخلاقٍ حميدةٍ ، وعلىٰ رأسِها الخشيةُ والخوفُ من الله سبحانه .

ولذلك تُحَدّثنا سيرتُه العَطِرَةُ عن أمانتِه ونَزاهتِه و... وذلك عندما أُوْكِلَ إليه مَنْصِبُ القضاء ، ثم مَنْصِبُ قاضي القضاة ، حتىٰ إنه كان لا يأخُذُ علىٰ ذلك أجراً!!

ولما كانتْ سنة (٢٤٠هـ) اختارَه اللهُ للقائِه... فأسْلَمَ الروحَ الطاهرةَ ، فوقَفَ الناسُ صفوفاً وصَلَّوا عليه ، ثم دفنوه في (القيروان) ، ورَدّدَ الحاضرون : ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴾

[سورة الفجر :٢٧-٣٠].

* * *